

فيها إما بتقليد أصوات الطبيعة وانفعالات النفس وإما بالمرس إلى المعاني بألفاظ كانت تدل في بادئ الأمر على الماديات ، كما يفعل الأطفال إلى الآن . فأول لفظة يتفوه بها الطفل الرضيع عند ما يبدأ في النطق هي « أم » أو « ما » يقصد بها الرضاع ، وهو في هذا يعبر تمييزاً طبيعياً عن ذلك المعنى لأنه إنما يقلد الحركة الآلية الفسيولوجية المحض التي يقوم بها للاطباق بشفتيه على ثدى أمه وهو حين يفعل ذلك كأنه يلفظ حرف الميم الذي لا يمكن النطق به إلا بإطباق الشفتين على بعضهما . ثم يتقدم الطفل في السن والنطق قليلاً فيتوسع في ذلك اللفظ الطبيعي إلى « م » يطلقها على الرضاع أولاً ثم على جميع أنواع الأغذية ، وعلى والدته نفسها ويفرع منها « ماما » .

وهذا عين ما حدث للانسانية نفسها في أول عهدها بالنطق ولذلك نجد أن جميع شعوب العالم تعبر عن الأم ( أى الوالدة ) بألفاظ متشابهة في جميع اللغات تشترك في حرف الميم سالف الذكر . وكانت اللفظة الواحدة في اللغات الأولى القديمة وفي اللغات التأخرة الحديثة تدل على الإسم والقمل على اختلاف أزمنته (الماضي والصارح والأمر) ، ولم تكن الضمائر وحروف الجر والنسبة والإضافة وغيرها قد ظهرت بعد . فكان الناس — وما زالوا في كثير من اللغات البسيطة إلى الآن — يتوعون معاني اللفظة الواحدة بإضافة لفظة أخرى إليها . فالسينيون مثلاً نلوا لفظهم من حرف الجر « في » يستضيضون عنه بلفظة « وسط » فيقولون « وسط مملكة » أى « في المملكة » ولأنهم لا يعرفون حرف الباء السببية يستعملون بدلها كلمة كاملة مستقلة . فنجد ما يريدون التعبير مثلاً عن معنى « قتل رجلاً بالمصا » يقولون « قتل رجلاً واستعمل عما » .

وتتقدم لغات البشر خطوة أخرى باستعمال الألفاظ الدالة على المحسوسات والأجسام المادية للتعبير عن المعاني الرزية والمعنوية فلا تشتمل كثير من اللغات البسيطة القديمة والحديثة على كلمة تدل على معنى الصلابة ، ولهذا يستعمل التكلمون بها لفظة «حجر» للتعبير عن ذلك المعنى كما فعل الناس في لغة إشاراتهم وكما يفضل الخرس الآن . ولا تشتمل لغات أخرى على لفظة تؤدى معنى الطول فيمربون عنه بلفظة « ساق » ، وعن لفظة مستدير يقولون

## النطق وكيف نشأ في الانسان وفي الحيوانات العليا ؟

للاستاذ نصيف المنقبادى المحامى

### ٢ — نشؤ النطق في الانسان

التفاهم بالأصوات :

وفي الوقت نفسه استمان أفراد النوع الإنسانى على التفاهم بالأصوات — فوق لغة الإشارات المتقدم بينها — وقد بدأوا بالأصوات الطبيعية للتعبير عن الانفعالات النفسية أو الآلام الجسدية والحاجات الحيوية كالتهند والتأوه والأين والتأفف وغير ذلك كما تفعل الأطفال والحيوانات . وما زال نرى لغات بعض القبائل التوحشة التي تعيش في أواسط أستراليا وفي أواسط أمريكا الجنوبية في هذا الطور من تطورات لغة البشر إلى الآن ، فإنهم نظراً لقلة مواد لغاتهم البسيطة يضطرون للتعبير عن أغراضهم إلى الإكثار من استعمال الإشارات . فإذا تكلموا صوتاً وأشاروا بأيديهم وأرجلهم وأعينهم ، والإشارات جزء من لغتهم لا يمكنهم الاستغناء عنه فهم لا يستطيعون التفاهم ليلاً . وألفاظ لغتهم أقرب إلى الأصوات الطبيعية ولغات القردة والليماسها إلى ألفاظ سائر لغات البشر وهناك قبائل أخرى بأستراليا لا تسمعهم لغتهم في التعبير عما وراء الاثنين بلفظ واحد إذ ليس لديهم من الألفاظ العددية إلا لفظتان فقط هما « نتات » أى واحد ، و « ناييس » أى اثنين . فإذا أرادوا ثلاثة أضافوها إلى بعضهما وقالوا : « ناييس نتات » أو أربعة « ناييس ناييس » أو خمسة « ناييس ناييس نتات » أو ستة « ناييس ناييس ناييس » . أما السبعة وما فوقها فيقفون عندها حيارى وهم يبرزون عنها بقولهم ما معناه « كثير » (١) . ثم ارتقاء الناس عقلياً ومدنياً وتقدمهم في الحياة الاجتماعية مع قيام حاجات جديدة لهم ؛ كل هذا جعلهم يتصرفون في ألفاظهم الأولى ويتوسمون وينوعونها ويفرغون ألفاظاً أخرى

(١) كتاب اللغفة القوية لجورجى زيلان .

إليه اللثة ونحوها من أصولها البسيطة الأروية . وكانت تدل في أول استعمالها على معانٍ حقيقية حسية ثم أطلقوها على معانٍ مجازية وكأها ترجع إلى أصل واحد وهو محاكات صوت طيبى وهو صوت القطع .

وهكذا الحال بالنسبة لمعظم ألفاظ اللثة . فن « هَب » بمعنى نار أو هاج تفرع هَب وهيج ( أى ضرب ضرباً شديداً ) ، وهبذ أى أسرع فى المشى وهبش بمعنى هيج المتقدمة ، وهبص الرجل أى نشط أو مجل ، وهبا الدرس أى فر . وهى جميعها تتضمن معنى « هب » وهى محاكاة صوت الالهيب إذا نفخه الإنسان أو نفخه الريح . ومن الألفاظ التى تدل على السرور وطلاقة الوجه : « بس » وبساه وبسم وبسط وبسل وبش أى حسنت سحتته وجميعها ترجع إلى معنى واحد وهو « بس » التى يقرب أنها تحولت لفظاً عن بش وهى من الأصوات التى ينطق بها الإنسان غريزياً عند الاستحسان كقول العامة إذا استحسنوا شيئاً أو أعجبوا به « إش » ومنها بش . ووجه بشرش . ومن ضروب معانى الفتح فن « فقاء » وفتح وفتح وفتح وفتح وفتح . والعامة تقول فقع . وترجع جميعها إلى « فن » وهى حكاية صوت القربة إذا سُقت وهى ملأى أو ماشا كل ذلك من الأصوات القريبة وفى الأمثلة المتقدمة جاء الحرف المزيد - المشتق من كلمة إضافية قديمة - فى آخر الكلمة الأولى وهذا هو الأغلب ولكن قد يكون فى الوسط أى بين الحرفين الأصليين كشلق من شق ، وفرق من فن ، وقرط من قط ، وقرص من قص وقرض من قص ، وشرق من شق ، ولحس ولس ولس من لس .

وألفاظ أخرى كثيرة مشتقة فى الأصل من أصوات طبيعية تعبر عن انفعالات نفسية أو حالات جسمانية فسيولوجية يخرجها الإنسان أو الحيوان باختياره أو عن غير قصد مثل « آه » للتألم والتهد . ولا يخفى أن الآلام وسائر انفعالات النفس تحدث اضطراباً فى التنفس عن طريق الجهاز العصبى فيضطر الحزين أو المغموم أو المهموم أن يستنشق من فترة إلى أخرى كمية زائدة من الهواء ليروض ما فاته من التنفس الناقص أثناء اضطرابه أو حزنه . وهذا هو التهد بينه : وقد اشتقت من لفظة « آه » ألفاظ كثيرة منها التاره وتأوه ومنها لفظة « تهد » نفسها . ومن

« مثل القمر » . ويحتمل العرب أحياناً لفظة « قلب » السادية للتعبير عن « وسط » فيقولون « قلب المدينة » بدلاً من « وسط المدينة » وذلك لأن القلب فى وسط الجسم . ولفظة وسط نفسها تحولت فى لغتنا المصرية من المعنى المادى ونعنى به وسط الأجسام إلى معنى معنوى محض أى وسط غير الساديات وصارت تستعمل بمعنى بيثة .

وقد استطاع علماء نشوء اللغات وتطورها واشتقاقها أن يردوا معظم الألفاظ المستعملة الآن فى اللغات الحديثة إلى أصول بسيطة تحاكي أصواتاً طبيعية أو انفعالات نفسية أو آلاماً جسمانية أو تقلد فعلاً مادياً مألوفاً ، ويطول بنا المقام لو اردنا استيعاب ذلك فنكتفى بيمض أمثلة عن أصول الألفاظ العربية نقتبسها من كتاب جورجى زيدان الذى نحن بصده . فن ذلك ألفاظ : قط وقلب وقطف وقطع وقطم وقطش وقطل ، فإياها جميعها تتضمن معنى القطع والأصل المشترك بينها هو لفظة قط وهو حكاية صوت القطع كما لا يخفى - وباللغة الإنجليزية أيضاً « كت » Cut - وبتطور اللغة وارتقاء المتكلمين بها فى المدنية تنوعت مدلولاتها بإضافة لفظة ثانية إلى لفظة قط للتعبير عن مختلف معانى القطع . وعلى ممر الزمن ضمرت اللفظة الثانية كما تضم أعضاء الحيوانات والنباتات ، وكادت تندثر ولم يبق منها الآن إلا حرف واحد اندمج فى لفظة قط وصار وإياها كلمة واحدة بالطرق المقررة فى علوم فقه اللغات .

ومن متنوعات « قط » لفظاً « قص » ومنها قصم وقصل وقصب وقصر وقصف وقص ، وجميعها تفيد القطع وتحاكي بمض أصوات تنوعاته القطع بالقص . ومن تحولات قص لفظة كس وهى محاكاة صوت الكسر ولا سيما كسر الخشب - وبالفرنسية Casser أى كسر - ومنها كس وكسر وكسع وكسم . وتحولت « قص » لفظاً من ناحية أخرى إلى « جز » ومنها جذه وجذب ( بمعنى انقطع فيقال جذب الريق أى انقطع ) وجذب وجذم وجميعها تتضمن معنى القطع أو تنوعاته ويجانس جَذَّ جَزَّ وهو محاكاة صوت قص الشعر وتنوعت منه جَزَّ وجزء وجزر وجزع وجزل وجزم . وإن تنوع معنى القطع يفوق المئات عدداً فضلاً عن اشتقاقات كل لفظة منها إسماعاً وفعلاً ونعتاً وفعالاً ومفعولاً ثلاثياً ورباعياً وخماسياً وغير ذلك مما تطورت

أندثرت امدم استمهاها . فاللغة ليس المستعملة الآن في العربية معناها نفي الوجود و « أيس » هذه بمعناها المذكور موجودة في كثير من اللغات السامية وغير السامية. فهي في العبرية القديمة « يش » ، وفي السريانية « إيت » ، وفي اللاتينية والسنسكريتية والفارسية واليونانية وفروعهن « إيت est » أى الكون أو الوجود ، وفي الفرنسية القديمة المتسلسلة من اللاتينية كما لا يخفى « إيت est » أيضاً ومنها تحولت في الفرنسية الحديثة إلى فعل être الذى أصله في الفرنسية القديمة estre الذى يفيد معنى الوجود أو الكينونة وأن عبارة Vous êtes أصلها Vous este ومعلوم أن حركة « هـ » المسماة Accent circonflexe المستجدة في الفرنسية الحديثة حلت محل حرف « S » في الفرنسية القديمة وعلى هذا النحو تحولت لفظة « hostel » بمعنى فندق إلى hôtel . وكلمة « مال » العربية التى يمتد جمهور الناس أنها لفظة ثابتة قاعمة بنفسها إنما هى مركبة في الواقع من « ما » الموصولة ولأم الإضافة كقولهم ما للرجل وما عليه أى الذى له والذى عليه ، وقد اندمج هذان الحرفان على مر الزمن وأصبحت كلمة واحدة مستقلة بمعنى المال . واشتقت منها ألفاظ عديدة منها مول واشتقاقاتها فلما وإسماً وفاعلاً ومفعولاً ، ومنها ملك وملكية وملك وقمل ملك وامتلك الخ ومنها ملك وجمها ملوك . ولا يبعد أن يكون مال يميل مأخوذ عن تلك اللفظة لأن الميل فيه معنى الحب والرغبة ، والمال أحب شئ للإنسان .

وما يقال عن اللغة العربية وأخواتها وأجدادها السامية يقال عن اللغات الهندية الأوروبية والطورانية وجميع لغات العالم .

\*\*\*

وخلاصة القول إن النطق ظاهرة طبيعية محضة بدأت على أبسط صورة في الحيوانات العليا التى تمشى جماعة مثل بعض الطيور وبعض أنواع ذوات التدى وعلى الأخص القروذ العليا (أما النمل فله طريقة صامتة للتفاهم والتعبير) . وقد ارتقى النطق واتسع في الإنسان نتيجة العوامل الطبيعية المتقدم بيأنها التى أدت تطور النوع الإنسانى وتحوله إلى شكله الحالى . فالفرق بين الإنسان والحيوانات إنما هو فرق في الدرجة فقط — درجة التطور — وليس في طبيعة الأمور

ذلك المهمة وهى الصوت الحاصل من الزفير عند الحزن ومنها الهم والمهموم الخ . والزفير أى إخراج النفس بشدة عند عمل شاق والشخير وهو محاكاة النائم وهو يفظ . والنحنحة والمطاس والسعال . ومن ذلك لهظة « وى » وقد تركب منها ومن اللام لفظ ويل ويعبرون بها على التفجع أو حلول الشر واستعملوها إسماً لواد في جهنم ، رشقوا منها ويلة بمعنى فضيحة وركبوا من ويل ألقاظ أخرى منها ويح ، ومنها ويب وربما كان أصلها « وى أب » للاستغاثة بالأب ولهظة ويح « ربما كان أصلها « وى أخ » للاستغاثة بالأخ . وكذلك الألفاظ العديدة المشتقة من كلمة أف ومنها الأنف والتأفف والنفخ وغيرها .

ويؤيد أن اللغة العربية نشأت هكذا أننا نجد تلك الألفاظ الأصلية في أخواتها العبرية والحيرية والأشورية والحبشية والكلدانية والعربية القديمة وجميعها مشتقة من أصل أو أصول قديمة اكتشفت آثار بعضها ولا يزال بعضها الآخر مجهولاً . وهى مجموعة اللغات المسماة باللغات الشرقية أو السامية . ويمكننا أن نتبين هنا أصل نشوء وتنوع وتطور الأسماء والأفعال على تبين صورها والحروف المختلفة كحروف الجر والنفي والإضافة والإشارة وكذلك الضمائر، ويمكننا أن نتبع كيفية تحول جميع هذه الألفاظ وتسلسلها من اللغات السامية القديمة إلى اللغة العربية وأخواتها السامية الحديثة كالعبرية وغيرها . ولكن المقام لا يتسع لذلك فنكتفي بمثل أو مثلين :

فالظرف « مع » في لغتنا العربية يقابله في العبرية « عم » ، وفي السريانية « عم » فلا شك في أن « مع » العربية مقلوبة عن « عم » العبرية والسريانية . ومن الغريب أن هذه اللفظة نفسها تفيد أيضاً في هاتين اللغتين — فوق معنى الظرفية — معنى « شب » ومعنى « الم الشرعى » . فيستدل من ذلك أن الأصل فيها معنى الاجتماع والاتحاد فاستعملوها إسماً للم الشرعى وانتقلت للعربية كما هى ، واستعملوها أداة عطف وانتقلت إلى العربية مقلوبة — أو أنها قلبت في الطريق .

ولفظ « ليس » النافية في اللغة العربية أصلها « لا » حرف النفي و « أيس » التى معناها في العبرية الكون أو الوجود ولم تنتقل هذه الكلمة إلى العربية أو أنها انتقلت ولم تلبث حتى